زائيّة الشمَّاخ بن ضرار الذبيانيّ دراسة في ضوء لسانيّات النصّ

م. حيدر حسين هاشم حوّاس
وزارة التربية – المديرية العامة لتربية محافظة ميسان

الملخّص:

يسعى بحثنا الموسوم (زائيّة الشمَّاخ بن ضرار الذبيانيّ دراسة في ضوء لسانيات النص) إلى تسليط الضوء على القصيدة من زاوية جديدة تختلف عن الزوايا التي فتحتها الدراسات السابقة والتي اشتملت على: اللغة، والبلاغة، والنحو وغير ذلك من الزوايا.

فهذا البحث أفاد من كل الدراسات السابقة ليخرج بدراسة جديدة تدور في فلك المنهج النصِّي، والذي من غاياته الوقوف على جوانب الاتساق ومدى معرفة ترابط كل جملة في النص وعلاقتها بالأخرى.

وقد تمخض عن استكشاف ما تنطوي عليه القصيدة من تماسك شديد على المستوى البنائي الشكلي، بواسطة الأدوات التي أسهمت في ربط عناصر النص، والتي تمثلت بـ: الإحالة، والحذف، والاستبدال، والوصل، والاتساق المعجمي مما ضمن انسيابية في المعنى، وإنتاج وحدةً متكاملة عكست صورة المضمون من خلال التراكيب وتلاحم الأجزاء. وقد ركز البحث على الجانب المعجمي، وذلك لأن القصيدة انطوت على معجم دلالي خاص منحها بيئة لفظية فريدة في الغرابة، أسهمت في خلق جوٍّ للقصيدة وشكَّلَ مع المضمون وحدةً نصِّية متآزرة.

Abstract :
Our research, entitled "The Zayyah of al-Shammakh ibn Dirar al-Dhubyani: A Study in Light of Text Linguistics," seeks to illuminate the poem from a new perspective, distinct from those explored in previous studies, which included language, rhetoric, grammar, and other related fields.
This research draws upon all previous studies to produce a novel analysis centered on textual methodology. One of its aims is to examine aspects of cohesion and the extent to which each sentence within the text is linked to the others.
The research reveals the poem's remarkable structural cohesion, achieved through the tools employed to connect its elements. These tools include reference, ellipsis, substitution, conjunction, and lexical cohesion, all of which contribute to a fluid flow of meaning and the creation of a unified whole that reflects the content through its structure and the cohesion of its parts. The research focused on the lexical aspect, because the poem contained a special semantic lexicon that gave it a unique verbal environment of strangeness, which contributed to creating an atmosphere for the poem and formed, with the content, a cohesive textual unity.

المقدمة

لا شكَّ في أنَّ قصيدة الشمَّاخ حظيت بدراسات عديدة على مختلف الجوانب، ولكن بعد الوقوف على تلك الدراسات وجدنا أنَّ من المناسب أن نخضع هذه القصيدة لزاوية دراسية جديدة وهي التحليل على وفق مقتضيات المنهج النصّي لإيماننا بأنَّ هذا المنهج يستطيع أن يستكشف العوامل البنائية التي كانت السبب الأساس في إخراج القصيدة بهذا الشكل البارع الذي جعل الباحثين يهتمون بها هذا الاهتمام، ذاك أنَّ المنهج النصِّي يهتم بالنظر إلى النص بوصفه وحدة متكاملة

سواء على مستوى الشكل أم على مستوى المضمون والوقوف على الأدوات والعناصر البنائية التي أنتجت هذه الوحدة. والله الموفق.

ميدان البحث وفضاء النص

يتناول بحثنا قصيدة الشمَّاخ التي نالت اهتماماً كبيراً من لدن الباحثين، وقد أفاد من تلك الدراسات في فهم الجو العام للقصيدة، من جوانب عديدة، منها ما يتعلق بالعناصر البلاغية (جبارة، 2022م، صفحة 88)، ومنها السوسيولسانية (بزاوية، 2023م، صفحة 18)، ومنها الدراسات الأدبية، التي تناولت جوانب الصورة، وعرفت بالشاعر (سهام وفاطمة، 2019م، صفحة 49)، وغيرها من الدراسات التي اعتنت بجوانب أخرى.

التعريف بالشاعر

الشماخ هو معقل بن ضرار بن حرملة بن صيفي بن أصرم بن إياس بن ثعلبة بن سنان بن أمامة الذبياني الغطفاني، وهو شاعر مخضرم أدرك الإسلام، وقيل إنه أشعر غطفان كما عرف بأنه أوصف الناس للقوس (الأصفهاني، 1992م، صفحة 158/9).

المنهج وأدوات الدراسة

لا شكَّ في أنَّ الدراسات النصية تسعى للكشف عن البنى النصية من خلال الوقوف على العلاقات النسقية المفضية إلى اتساق النصوص وانسجامها والكشف عن أغراضها التداولية وتسليط الضوء على المعايير التي يستقيم بها النص، فهذا المنهج يسلك طريقة خطية متدرجاً من بداية الخطاب حتى نهايته راصداً الضمائر والإشارات المحلية.

والمقصود بالاتساق الترابط بين التراكيب والجمل إذ تتآزر تلك التراكيب لتؤلف تناسقاً نصياً، ويتحقق الاتساق عبر وسائل وآليات تجعل من النص كلاً متكاملاً (جامعة القاضي عياض، 2022م، الصفحات 5-6)، بوصفه وحدة واحدة، متمكاسكة الأجزاء تؤدي وظيفة تداولية معينة، فالتماسك والاتساق أو ما يطلق

عليه بالنصية (مدّاس، 2009، صفحة 24) هو من شأن علم لغة النص، ونحو النص هو مستوى ما وراء الجملة، ويتعلق بفحص علاقة المكونات التركيبية داخل الجملة، وقد اتكأ النصيون في دعوتهم لإنشاء هذا النوع من النحو القائم على النص وتجاوز الجملة على عدم كفاية الجملة، بوصفها معطىً مجرداً معزولاً عن السياق والمقام، الأمر الذي يعني "الحاجة إلى جهاز وصف يتجاوز حدود الجملة، فيقف على دلالة النصوص والبنية التي تحكمها" (الزنّاد، 1993م، صفحة 16). ولأنَّ "اللغة لا يمكن أن تفهم بصورة شاملة ودقيقة بمعزل عن فهم أساليب التعبير المختلفة في النص الواحد، ومقارنة بعضها ببعض، نشأ من هذا التوجه نحو النص (استيتية، 2003م، صفحة 26)، فهذا النحو ينظر إلى الكلام نظرة شاملة غير مجزَّأة، ويتجاوز الوصف الشكلي في نحو الجملة، فهو نحو تحليلي شامل لكل مفاصل الكلام (الجرّاح، 2020م، صفحة 32).

مفهوم النص

يشير مفهوم النص في معظم أحواله إلى كل حديث جعلته الكتابة ثابتاً، لكنَّ التثبيت بوساطة الكتابة قد يشكل على النص بالذات، ذلك أن الكتابة كمؤسسة هي لاحقة للكلام، ويبدو دورها في تثبيت كل التمفصلات التي سبقت وظهرت بطريقة شفهية، فالنص لا يقتصر على كونه مجرد بناء لغوي فحسب، وإنما يدخل هذا البناء في عناصر أخرى، نحو السياق التفاعلي بين المخاطِب والمخاطَب، وفي معرفة قصد المتكلم ومدى تأثيره في المتلقي، ودرجة إقناعه في إطار ما يسمى بالاتصال اللغوي، فالنص إذن هو "الكم الكلي للإشارات الاتصالية الواردة في تفاعل اتصالي، كما أن المتكلم والمستمع كليهما يلعبان دوراً رئيساً في الوصول إلى كنه النص أو محاولة تعريفه" (العقباوي، 2016م، صفحة 109)، ولهذا ينبغي مراعاة جميع هذه الزوايا في محاولة معرفة المقصود من النص، لاسيما أنَّه مقترن بخطاب ما، وقد مرَّ هو والخطاب منذ ظهورهما "بتحولات دلالية كبيرة إذ انطلق من دائرة موسعة تفيد أنه يدل على كل ما يمكن أن يفهم منه

حكم، ثم انتقل بعد ذلك إلى التضييق الدلالي إلى ما يقابل المعنى الظاهر، وليس مرادفه.

إنَّ اللفظ يكون نصاً إما من خلال قرائن أو سياق" (رمضان، 2007م، صفحة 403)، إذ يتحول إلى خطاب ليكون قابلاً لتأويلات عديدة، وأنَّ موضوع تحليل الخطاب هو الرابط والجامع بين اللسانيات والعلوم اللسانية الأخرى،، فهو بؤرة جميع تلك المفاهيم في اللسانيات التداولية (ناعوس، 2013م، صفحة 26).

إنَّ "وظيفة اللغة الأساسية هي التعبير عن الأحاسيس وتبليغ الأفكار من المتكلم إلى المخاطب، فاللغة بهذا الاعتبار وسيلة للتفاهم بين البشر، وأداة لا غنى للتعامل بها في حياتهم" (المسدّيّ، 1986م، صفحة 31)، ومن هنا نشأت فكرة التداوليات للكشف عن الطاقات الكامنة في اللغة من أجل الإفادة من معطيات هذا العمل في رفد ميادين الحياة المختلفة بعوامل التطوير أو تصحيح المسار أو غيرها من الأهداف التي تنشدها الدراسات الألسنية، فعلى الرغم من أن ثمَّة ميزات خاصة لكل علم على مستوى المنهج والموضوع إلا أننا نجد قواسم مشتركة في الحقول المعرفية في المفاهيم والمصطلحات، لذا تداخلت العلوم ودراساتها بعضها ببعض فهذا هو قانون العلوم كما يرى الباحثون (عبد الرحمن، 2012م، صفحة 76)، ولا شكَّ في أنَّ الغاية الأساس هي معرفة مقاصد المتكلم وأغراض كلامه، فالمعنى لا يستقى من البنية وحدها، وهي الجانب اللغوي منه؛ بل من الجانب السياقي أيضاً، فقد يكون بعيداً عن الجانب الأول وعلى السامع إدراك ذلك" (بوجادي، 2009م، صفحة 134)، ومن هنا فإن الكشف عن أدوات التماسك النصي لا يغني في معرفة المقاصد، ما لم تُراعَ الجوانب الأخرى المتعلقة بالكلام، وهذه غايات تداولية بامتياز (بوجادي، 2009م، صفحة 69). فإذا كانت وجهة النظر تتركز على الصيغة التفاعلية، وربط الكلام بمكوناته من مقاصد وسياقات متعددة وأطراف العملية التواصلية، وما يحيط به من ملابسات سياقية، فإنَّ الكلام هنا يندرج في مفهوم النص.

مفهوم التماسك النصي

التماسك لغوياً: مسك بالشيء وأمسك به وتمسك وتماسك واستمسك ومسك، كله: احتبس أو بمعنى اعتصم (ابن منظور، 2003م، صفحة 3719/4)، وفي التنزيل: (وَالَّذِينَ يُمَسِّكُونَ بِالْكِتَابِ) (الأعراف: الآية 170).

أمَّا التماسك اصطلاحاً، فإنه يعدُّ من أهم المعايير التي تمنح النص نصيته فهو حدث تواصلي يلزم لكونه نصاً أن تتوافر فيه معايير للنصية مجتمعة (دي بوجراند، 1998م، صفحة 103)، كالسبك أو الربط النحوي والحبك أو الالتحام أو التماسك الدلالي والقصد أي هدف النص والقبول أو المقبولية وتتعلق بموقف المتلقي والإخبارية أو الإعلام أي توقع المعلومات الواردة فيه أو عدمه المقامية وتتعلق بمناسبة النص للموقف (الفقّي، 2000م، صفحة 34).

إنَّ مفهوم التماسك من المفاهيم التي اهتم بها علم لغة النص، وذلك لكونه آلة تعمل على الربط وتحقيق التكامل والتلاحم بين أجزاء النص وتشكيله وتفسيره؛ لأنه وسيلة أساسية للتفكير البشري وذلك لوجود صلة وثيقة بين اللغة والتفكير (فريال وفهيمة، 2020م، صفحة 14).

أدوات التماسك النصي

تنقسم أدوات التماسك النصي إلى قسمين: أدوات داخلية وأدوات خارجية.

ومن أهم الأدوات الخارجية:

السياق الخارجي

السياق، ويقسم إلى سياق داخلي وسياق خارجي، فأما الداخلي فيتعلق بمكونات النص اللغوية الداخلية وأما الخارجي فيتعلق بما وراء النص من أدوات تسهم هي الأخرى في تآزره وتسمى أدوات التماسك الخارجية ويمكن أن تدعى بالفضاء الخارجي للنص، ذلك أنَّ دراسة المعنى لا تكون معزولة عن المحيط والبيئة (ذهبية، 2012م، صفحة 125)؛ إذ إنَّ المكوّن التداولي يعالج وصف الملفوظات في سياقاتها (مونغونو، 2008م، صفحة 98)، وإنَّ أهم مبدأين يتم توظيفهما

ليتجلى أثر الفعل الكلامي هما: مبدأ القصدية، ومبدأ المعطيات السياقية، فدلالة الكلام مبنية على معرفة المقاصد وهي قدرة العقل أن يوجه ذاته نحو الأشياء ويمثلها وهي مسلمة في الفعل اللغوي" (صحراويّ، 2005م، صفحة 44). أما المعطيات السياقية: "فتقوم فكرتها على أنَّ أثناء عملية التخاطب يتم استحضار متغيرات العالم الخارجي والمكونات الذاتية، كالبيئة الاجتماعية والمشتركات المعرفية، بين طرفي الخطاب من أجل تطويع استعمال اللغة، وتطوير ذوات الناس التخاطبية بما يواكب متطلبات السياق وما يكفل التكيف مع تقلباته" (ذهبية، 2012م، صفحة 125)، ومن المبادئ المهمة في الكشف عن دلالات الكلام معرفة الأحداث التي سبقت فعل التلفظ" (هنّوش، 2016م، صفحة 64).

إنَّ السياق أو المقام يقتضي ثلاثة عناصر: عنصر ذاتي وعنصر موضوعي وعنصر ذواتي. فالعنصر الذاتي يشمل: متعقدات المتكلم ومقاصده واهتماماته وأهدافه ورغباته والعنصر الموضوعي هو الوقائع الخارجية التي يتم فيها القول يعني الظروف الزمانية والمكانية، والعنصر الذواتي أي ما بين ذوات المخاطبين والمقصود به المعرفة المشتركة بين المتخاطبين سواء كانت معرفة اجتماعية أو ثقافية أو تراثية أو غير ذلك" (هنّوش، 2016م، صفحة 65).

سياق القصيدة

يتلخص موضوع القصيدة الأساس بعد أن استنفد الشاعر متطلبات البناء الفني التقليدي بقصة قوس إذ تبدأ القصة بخروج القواس الشاعر طالباً للصيد فلاقى جمعاً من حمير الوحش يطلب عين ماء وعندما رأته جفلت وفرت مؤثرة أن تعاني العيش على الموت.

فالقوس إذن هو مادة القصيدة وقد تعددت عند الشاعر حقيقة القوس فكانت رمزاً للقوة والطراد وآلة الصيد والموت كما أنها أصبحت رمزاً للحزن والحسرة ورمزاً للفقدان والأسى وعلامة على الوفاء والولاء. إنَّ هذه القوس تشبه الحبيبة الحية في نقائها وطهارتها وتحاكي الصديق الوفي كما ظهر في مطلع القصيدة (جبارة،

2022م، صفحة 104)، وقد سرد الشاعر مراحل حياة هذه القوس، ابتداءً من كونها غصناً صغيراً فكان يتابع نمو ذلك الغصن مدة عامين ويرعى تلك المراحل يقومه ويسقيه الماء، وبعد أن نضج الغصن اقتطعه وعرضه للشمس حولين كاملين، وبعد ذلك أدخله في آلة الثقاب فثقبه وسواه وبراه من الاعوجاج وصنع منه قوساً، رزفق بوساطته صيداً صيد وفيراً، وقد دفعته الحاجة إلى بيع قوسه فذهب إلى السوق فعرض له رجل خبير بالأقواس فمد إليها يده وقد أغراه بالثمن (روميّة، 1996م، صفحة 337).

لقد عمد الشاعر إلى أن يشحن قصة القوس الحزينة بمعان وحكم استطاعت أن تتجاوز الزمن لتبقى خمسة عشر قرناً مثار اهتمام المعنيين باللغة والأدب.

السياق الداخلي/ اللغوي

تمتاز القصيدة بأنها تنطوي على معجم دلالي خاص فقد عمد الشاعر إلى استعمال الألفاظ الوعرة التي تتناسب وبيئة النص الخارجية، وذلك من بداية القصيدة حتى نهايتها، فقد بدأ النص بقوله (ديوان الشمّاخ، 1996م، صفحة 173):

عفا بطنُ قوٍّ من سليمى فعالِ
زُفذاتُ الغضا فالمشرفات النواشزُ
فكلُّ خليلٍ غير هاضم نفسه
لوصلِ خليلٍ صارمٍ أو معارزُ

فكما هو واضح أنَّ معظم الألفاظ تقتضي إحالة معجمية، للوقوف على دلالاتها، ويمكن أن نستفيد هنا مما دونه شارح الديوان في شرح الدلالات المعجمية.

إحالة معجمية: قوّ: منزل للقاصد إلى المدينة من البصرة، وعالز: موضع في ديار بني تغلب. وذات الغضا: أرض في ديار بني كلاب، كانت بها وقعة لهم، والغضا ضرب من الشجر. ومعنى البيت الثاني أن كل خليل لا يكسر نفسه لصاحبه ولا يتحمل منه الأذى في نيل وصاله يؤدي به ذلك إلى الصرم والمجانبة (ديوان

الشمّاخ، 1996م، صفحة 173)، وقد وصف الشاعر ديار سليمى وقد انمحت آثارها وذكر المواضع التي تتصل وبيَّن أن الخليل الظالم لنفسه يهون عليه أن يقطع الوصل وهكذا نرى مدى حاجة الألفاظ إلى الإحالة المعجمية.

الاتساق النصّي/ التماسك

الاتساق مفهوم دلالي يحيل إلى العلاقات المعنوية القائمة داخل النص والتي تحدده بوصفه نصاً (الخطّابيّ، 2005م، صفحة 15)، ويعني تنظيم المعاني داخل النص الواحد وتقويتها عن طريق أدوات لغوية تسهم في ذلك التنظيم بوساطة ربط الجمل المكونة للنص ربطاً وثيقًاً يوفر عوامل تماسكية تمنح النص صفته النصية ويتحقق هذا التماسك عن طريق مبدأ التبعية (عيّاش، 2007م، صفحة 112) وأدوات الاتساق النصي أو ما يعرف بالتماسك تكون على النحو الآتي:

- الإحالة

وتنقسم الإحالة إلى (مقامية) و(نصية)، وتتفرع إلى إحالة قبلية وإحالة بعدية (الخطّابيّ، 2005م، صفحة 19)، فالضمائر منها وجودية: كضمير المتكلم والغائب والمخاطب وضمائر التملك كذلك. وتعدُّ الإحالة من أهم أدوات التماسك النصي وتمثِّلُ العلاقة بين العبارات والأشياء والمواقف في العالم الخارجي الذي تشير إليه العبارات والصيغ الكنائية.

ويندرج تحت ما يسمى بالإحالة:

- الإضمار، ويعني في النحو الإخفاء (السهيليّ، 1993م، صفحة 324)، ومنه إضمار الاسم وإضمار الفعل وغير ذلك فالعناصر المحلية مهما كان نوعها لا تكفي بذاتها من حيث التأويل، إذ لابد من العودة إلى ما تشير إليه وتتوافر كل لغة طبيعية على عناصر تملك خاصية الإحالة ومنها الضمائر وأسماء الإشارة، وتقوم الضمائر بوظيفة مشاركة الشخوص في التواصل أو غيابها عنه، بينما تقوم أسماء الإشارة بوظيفة تحديد مواقع هذه الشخوص في الزمان والمكان داخل المقام

الإشاري وهي تتساوى مع الضمائر الدالة على الغائب في كونها تحيل إلى داخل النص ولنأخذ مثلاً هذه الأبيات:

يقول الشاعر (ديوان الشمّاخ، 1996م، صفحة 175):

1- فكـــــلُّ خليـــــلٍ غيـــــر هاضـــــم نفســـــهِ
لوصـــــــلِ خليـــــــل صـــــــارمٌ أو معـــــــارزُ

2- ومرقبـــــــة لا تســـــــتطاع بهـــــا الـــــرَّدى
تلاقـــى بهـــا حلمـــي عـــن الجهـــل حـــاجزُ

3- وعوجـــــاءُ مجـــــذام وأمـــــر صـــــريمةٌ
تركـــــتُ بهـــــا الشـــــك الـــــذي هـــــو عـــــاجز

4- كـــــأن قتـــــودي فـــــوقَ جـــــأب مطـــــرَّدٍ
مـــــن الحقـــــب لاحتْـــــه الجـــــدادُ الغـــــوارزُ

وهكذا نرى أنَّ كلَّ بيتٍ انطوى على إحالة (نصية قبلية)، فالضمائر في الأبيات تحيل إلى أسمائها التي سبقتها مما شكَّلت روابط أسهمت في تماسك النص وعلى النحو الآتي:

الإحالة في البيت الأول - الضمير (ها) في لفظ (نفسه) يحيل إلى (خليل).

وفي البيت الثاني الضمير (ها) في (بها) مكررًّاً يحيل إلى (مرقبة).

وفي الثالث الضمير (ها) في (بها) يحيل إلى (عوجاء).

وفي البيت الرابع الضمير (هاء) في (لاحته) يعود على الجأب وهو الحمار، وقد أراد الشاعر تشبيه راحلته بحمار وحش يطلب ماءً في شدة القيظ، مع أتنه. والقتود خشب الرحل والمطرَّد الذي طردته الرماة.

واقتطعنا هذه الأبيات لتمثل نماذج للإحالة (النصية القبلية)، ويمكن أن نوضِّحها بالمخطط الآتي:

اللفظ المحيل	المحال إليه	العلاقة بينهما	الرابط المعنوي
1- ها في نفسه	خليل	تطابق	المتكلم
2- ها في بها	مرقبة	تطابق	المتكلم
3- ها في بها	عوجاء	تطابق	المتكلم
4 - ها في لاحته	الحقب	تطابق	المتكلم

وهكذا نرى أنَّ الربط الإحالي في هذه الأبيات تحقق بوساطة توافر مجموعة من العناصر التي أسهمت في تفعيله وتوزعت بين:

ـاللفظ المحيل، وقد تمثَّل بالضمائر.

- المحال إليه، ومثَّل العناصر اللغوية التي سبقت، والموجودة داخل النص.

- العلاقة بين اللفظ المحيل والمحال إليه، وقد تمثَّلت هذه العلاقة بالتطابق بين اللفظ المحيل والمحال إليه، مما أسهم في عملية تماسك النص (دي بوجراند، 1998م، صفحة 111).

4- المتكلم، من خلال مقاصده المعنوية، تمت الإحالة على وفق ما يرتأيه من تطابق بين المحال والمحال إليه، ولهذا كان المتكلم هو الرابط المعنوي بين اللفظ المحيل، والحال إليه.

ويمكن أنْ نمثِّل للإحالة النصية قبلية والبعدية في البيت الآتي:

فظلَّتْ بيمئودٍ كأنَّ عيونها إلى الشمس - هل تدنو - ركيٌّ نواكز (ديوان الشمّاخ، 1996م، صفحة 176) فالضمائر: (الضمير المستتر هي)، و(الضمير الظاهر الهاء في عيونها)، هي إحالات نصية قبلية تشير إلى محال إليه سابق. أمَّا جملة الاستفهام: هل تدنو؟ فإنه تحيل إلى جواب لاحق، فهي تمثل إحالة نصية بعدية.

أمَّا الإحالة المقامية فنجدها مثلاً كما في قوله:

فظـــلَّ ينـــاجي نفســـه وأميرَهـــا أيـــاتي الـــذي يعطـــى بهـــا أم يجـــاوز؟

فقـــالوا لـــه: بـــايع أخـــاك ولا يكـــنْ لـــك اليـــوم عـــن ربـــح مـــن البـــين لاهـــز

فالفعل (قالوا) يحيل إلى جمهور لم يذكره في داخل النص، ولم يشر له باللفظ الصريح، قبل لفظة (قالوا). ويمكن أن نوضحه بالمخطط الآتي:

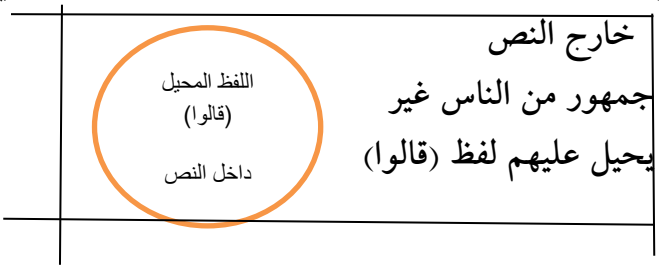

- الاستبدال

الاستبدال في اللغة: يعني أن نضع شيئاً في مكان شيء، ويعدُّ الاستبدال من الأدوات المهمة التي تحقق التماسك النصي، فهو "عملية تتم داخل النص. فإنه يمثِّلُ تعويض عنصر في النص بعنصر آخر" (الخطّابيّ، 2005م، صفحة 19).

ويسمى التعبير الأول من التعبيرين (المنقول) المستبدل منه، والآخر الذي حل محله المستبدل به "وإذا وقع المستبدل منه والمستبدل به في مواقع نصية متوالية فإنهما يقعان في علاقة استبدال نحوية بعضها ببعض ويوجد في حالة الاستبدال النحوي بين المستبدل به والمستبدل منه مطابقة إحالية" (هانينه م، 2004م، صفحة 60)، وأنواع الاستبدال هي: الاستبدال الاسمي، والاستبدال الفعلي، والاستبدال القولي (الفقّيّ، 2000م، صفحة 268).

ولنقف على هذا المقطع (ديوان الشمّاخ، 1996م، الصفحات 183-184):

قليـــل الـــتلاد غيـــر قـــوس وأســـهم كـــأن الـــذي يرمـــي مـــن الـــوحش تـــارز

مطـــلاً بـــزرق مـــا يـــدواى رميُّهـــا

وصـــــفراء مـــــن نبـــــع عليهـــــا الجلائـــــز
تخيرهـــــا القـــــواس مـــــن فـــــرع ضـــــالة
لهـــــا شـــــذب مـــــن دونهـــــا وحـــــواجز
نمـــــت فـــــي مكـــــان كنهـــــا واســـــتوت بـــــه
فمـــــا دونهـــــا مـــــن غليهـــــا متلاحـــــز
فمـــــا زال ينجـــــو كـــــل رطـــــب ويـــــابس
وينغـــــل حتـــــى نالهـــــا وهـــــو بـــــارز

ومن أجل أن نقف على مواقع الاستبدال فلابد لنا أن نعود إلى إحالة معجمية للألفاظ:

إحالة معجمية: التلاد: كل مال قديم من حيوان يورث من الآباء، وقليل التلاد يعني لا مال له غير هذا القوس والتارز اليابس: أي كأنه يابس قبل أن يصيبه السهم. مطلّاً أي مشرفا على الأطلال، والزرق النصال، والصفراء القوس، والنبع شجر أصفر، والجلائز عقبات تلوى على كل موضع من القوس لتشدها والضالة شجرة السدر، أصفر طيب الرائحة، ونمت بمعنى طالت (ديوان الشمّاخ، 1996م، صفحة 184).

وبعد معرفة معاني الألفاظ يمكننا أن نبين مواضع الاستبدال بالخطط الآتي:

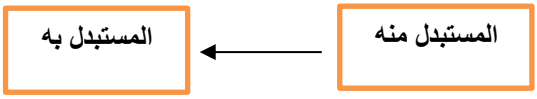

الاستبدال الاسمي: القوس ⟷ جملة: كأن الذي يرمي به.
قليل التلاد مطلاً.. ⟷
القوس صفراء ⟷
الاستبدال الفعلي: كنَّها استوت بالمكان (بنفس المعنى) ⟷
الاستبدال القولي: جملة مازال ينحو كل رطب نالها. ⟷

فمن أنواع الاستبدال في الأبيات:
- الاستبدال الاسمي: فقد استبدل الشاعر لفظ قليل التلاد بالمطل في البيت الثاني، والصفراء للقوس، والقواس صانع الأقواس.
الاستبدال الفعلي: يظهر الاستبدال بين الفعلين (كنَّها - استوت) وكلاهما يدلُّ على حال النبتة في المكان.
- الاستبدال القولي، وهو الاستبدال الذي يحل فيه عنصر لغوي محل عبارة داخل النص، ويشترط أن يتضمن العنصر المستبدل به محتوى العبارة المستبدل بها، أي أنه استبدل الجملة بكاملها، فتقع أولاً جملة الاستبدال، ثم تقع الجملة المستبدلة (الخطّابيّ، 2005م، صفحة 19)، ويظهر هذا في استبدال جملة: فمازال بلفظة نالها.

د- الحذف

إنَّ الجملة تمثِّل نسقاً من الكلمات، غايتها تأدية فكرة تامة، والحذف يعني إسقاط كلمة من بناء الجملة (نحلة، 1987م، صفحة 17)، وقد تكون هذه الكلمة ركناً من أركان الجملة، كالمبتدأ أو الخبر أو الفعل أو الفاعل، أو قد تكون حرفاً، وقد تحذف الجملة (الحمويّ، 2003م، صفحة 275/1).
إن التركيب الذي يتشكل منه الكلام هو عرضة لتحولات مختلفة، تنتج بدورها تراكيب دلالية عامة، وتراكيب دلالية خاصة" (عيد، 1989م، صفحة 47).
إنَّ لجوء الشاعر للحذف إنما يأتي من إدراك الشاعر للأهمية التي ينطوي عليها هذا التلاعب بالتركيب، بعد أن يطمئنَّ إلى أنَّ الحذف قد تحقق في ظل وجود قرائن في النص، يفهم من خلالها المحذوف (حمّودة، 1994م، صفحة 14)، وقد عبَّر عبد القاهر الجرجاني عن الحذف بأنه "باب دقيق المسلك لطيف المأخذ عجيب الأمر شبيه بالسحر، فإنه ترى به ترك الذكر أفصح من الذكر والصمت عن الإفادة أزيد للإفادة وتجدك أنطق ما تكون إذا لم تنطق، وأتم ما تكون بياناً إذا لم تبن" (الجرجانيّ، 1988م، صفحة 146).

ولو تفحَّصنا قصيدة الشماخ، لوجدناها تنطوي على مواقع للحذف، ولكنَّ أغلبها كان دائراً في حذف قول، أكثر من كونه حذف لفظ، فمن ذلك ما وقفنا عليه في المقطع الآتي (ديوان الشمّاخ، 1996م، صفحة 188):

فـــــوافى بهـــــا أهـــــل المواســـــم فـــــانبرى

لهـــــا بيِّـــــعٌ يغلـــــي بهـــــا الســـــوم رائـــــز

فقـــــال لـــــه: هـــــل تشـــــتريها فإنهـــــا

تبـــــاع بمـــــا بيـــــع الـــــتلاد الحرائـــــز

فقـــــــال: إزار شـــــــرعبي وأربـــــــع

مـــــــن الســـــــيراء أو أواق نـــــــواجز

ثمـــــان مـــــن الكيـــــري حمـــــر كأنهـــــا

مـــــن الجمـــــر مـــــا ذكـــــى علـــــى النـــــار خـــــابز

وبـــــردان مـــــن خـــــال وتســـــعون درهمـــــا

ومـــــع ذاك مقـــــروض مـــــن الجلـــــد مـــــاعز

فقد وقع الحذف كالآتي:

تردد الشاعر في قبول البيع، وشاور نفسه، هل يبيعها بما

له	نعم اشريها	ادفع ثمنها كذا وكذا

الحذف في البيت الثالث، فقد أسقط الشاعر لفظ (له) بعد (قال)، وكذلك أسقط عبارة القبول بالشراء كأن يكون (نعم أشتري)، وكذلك أسقط عبارة الشاري (أدفع بها كذا)، واكتفى بذكر الثمن في قوله: إزار شرعبي، والسيراء جنس من البرود المسيرة، وقوله أربع أي أربع شقاق، وقد أقام المضاف مقام المضاف إليه والأواقي جمع أوقية... فقد وصف الشاعر ما أعطي من ثمن القوس ولكنه اكتفى بذكر هذه الأثمان وحذف الحوار، كما أسقط الكلام الذي يشير إلى تردده في عملية البيع.

ومن هنا ندرك محاولة الشاعر استثمار خاصية الحذف في بناء التراكيب النحوية، مما أدى إلى التماسك النصي، فحقق هذا الحذف مستوىً من العدول والانتهاك والانحراف عن الحالات القرينة بمثاليات اللغة، التي تكون لصيقة بالدلالات الأساسية والأصلية، التي تعمل على تشكيل علاقات الإسناد التي هي وليدة التشكيلات النحوية.

فمن يتأمَّل مواقع هذه المحذوفات، يطمئنُّ حتماً إلى أمرين، الأول هو إدراك أهمية الحذف بوصفه أداة من أدوات الربط النصي، ومن ثم إسهامه في عملية تماسك النص، والآخر التيقن من مقدرة المبدع في خلق العلاقات المتفاعلة في طرفي الإسناد من خلال الحذف، بما يغني في إبراز بنيته وجلاء رؤيته جلاء مثرياً وممتعاً في الوقت نفسه (أبو الرضا، 1988م، صفحة 106).

هـ- الوصل

وقد يسمى (الربط)، ويدخل هذا الربط فيما يعرف بالمباني ذات التبعية الدلالية (ستيتية، 2008م، صفحة 510)، ويسهم الربط بلا شكٍّ في عملية التماسك النصي.

ويتعلق هذا الموضوع بحروف العطف: الواو - الفاء - ثم - حتى - أو - أم، وهي التي تفيد المشاركة بين المعطوف والمعطوف عليه، و(بل - لا - لكن) التي تعطي المعطوف حركة المعطوف عليه، من دون المشاركة في الحكم، وحروف العطف من الروابط المهمة في النص (حسّان، 1993م، صفحة 140)، فدراستها على وفق منظور النحو النصي تقتضي أن لا يُنظر إليها بوصفها أدوات جامدة؛ بل من ناحية كونها أدوات تضفي على النص تماسكاً عضوياً ومعنوياً من خلال الربط بين مكوناته المختلفة، وهي بهذا تمثِّل مكونات بنائية تتضافر مع المكونات الأخرى في إنتاج معنى النص من خلال التفاعل بين أطراف العملية الإبداعية بين المبدع والمتلقي في سياق وقصد معينين.

ومفهوم العطف يتعلق بالدراسة النحوية. أما مفهوم الوصل، فإنه مقام بلاغي تنفرز من خلاله دقائق معنوية على وفق السياق الذي يرد فيه هذا الوصل، كما أنَّ العناية فيه تركزت في صورة الجُمل أكثر من ربطه للمفردات؛ لأنَّ الربط في المفردات أكثر وضوحاً من الناحية المعنوية من الربط في الجمل، ولل- (الواو) معانٍ كثيرة ذكرتها كتب النحو (الأنصاريّ، 1992م، صفحة 263/1). أمَّا فيما يتعلق بالوصل بوصفه أداة من أدوات التماسك النصي، فقد قسم الباحثون الوصل إلى: وصل إضافي، وعكسي، وسببي، وزمني (الخطّابيّ، 2005م، صفحة 24).

ولسنا هنا في صدد تعداد هذه الأنواع، وإنما الاكتفاء بما يدعم فكرة البحث التي تسعى إلى الكشف عن هذه الروابط في القصيدة، بما يسهم في تماسك النص، فمن ذلك مثلاً، النص الآتي (ديوان الشمّاخ، 1996م، صفحة 189):

فلمـــــا شـــــراها فاضـــــت العـــــين عبـــــرة

وفـــــي الصـــــدر حـــــزاز مـــــن الوجـــــد حـــــامز

وذاق فأعطتـــــــه مـــــــن اللـــــــين جانبـــــــا

كفـــــى ولهـــــا أن تغـــــرق الســـــهم حـــــاجز

فأدوات العطف في النص هي:

- الفاء، وقد ربطت ما بعدها بما قبلها من كلام.
- الواو: وفي الصدر.
- وذاق.
- فأعطته.
- ولها.

فهذه الحروف أفادت في الوصل الذي أحدث تماسكاً زمنياً أضفى على القصيدة حركة وحياة على الرغم من مُضي أحداثها، إذ إنَّ عملية الوصل تتيح مجموعة

من العلاقات، بين المساحات، والأشياء التي في هذه المساحات، والصور التي تترابط بأنواع الربط المختلفة (دي بوجراند، 1998م، صفحة 346).

التماسك المعجمي

يعدُّ التماسك المعجمي من أهم أعمدة نظرية التماسك النصّي، ويعتمدُ على ما يقوم بين الوحدات المعجمية من علاقات، كالترادف والتضاد وغيرها، ويتحقق التماسك المعجمي عبر ظاهرتين لغويتين هما: التكرار والمصاحبة المعجمية (الخطّابيّ، 2005م، صفحة 92)، فالتكرار المعجمي يعني إعادة العنصر المعجمي، وهو تكرار تام وتكرار جزئي، وثمة الترادف وشبه الترادف، وهو تكرار المعنى دون اللفظ، وثمة الكلمة الشاملة التي يندرج تحتها عدد من الكلمات المتكافئة، وألفاظ العموم المجردة (بعلبكيّ، 1990م، صفحة 484).

ويعدُّ التكرار من الظواهر النصية التي تضفي على النص الترابط الشكلي والدلالي في سياق تواصلي بين العناصر المتكررة، ومن ثمَّ فهو مفتاحٌ للقضية الكبرى المتسلطة على النص (نزار، 2020م، صفحة 46)، إذ يحقق التكرار أغراض ودلالات وأهداف النص ومضامينه المقصودة، ويفيد في تقرير وجهة نظر معينة وتوكيدها (أبو غزالة وحمد، 1998م، صفحة 82)، وأنعاش الذاكرة حيث يُعرَّف التكرار بأنه إعادة ذكر الكلام بعد أن حال بينه وبين ما يتعلق به فاصل قد جعله مظنة النسيان (حسّان، 1993م، صفحة 113).

وقد زخر النص بشتى أنواع التكرار، ابتداءً من الحرف، إذ تمكرر حرف ال- (ز) في القصيد، وثمة تكرار في الألفاظ والعبارات، سواء على المستوى اللفظي، أم على مستوى تكرار المعنى، فمن ذلك تكرار لفظة خليل في البيت الثاني، ولفظة (بها) في البيت الثالث والرابع، وتكرر أسماء الأماكن، وتكرار صفات الحمير، وتكرار الأقوال عن القوس، وغير ذلك من التكرار الذي جعل من القصيدة وحدة واحدة متآزرة من مطلعها إلى نهايتها.

الخاتمة ونتائج البحث

وبعد أن أتممت بفضل الله ومنته بحثي الموسوم بـ(زائيّة الشمَّاخ بن ضرار الذبيانيّ دراسة في ضوء لسانيات النص)، أضع بين يدي القارئ أهم النتائج التي توصلت إليها:

• ركز البحثُ ابتداءً على بيان أهمية المنهج النصي أو نحو النص في قراءة النص الشعري، إذ يعنى هذا النحو بالعلاقات العامة والروابط التي تجعل من النص وحدة واحدة وقد تجلّت مظاهر النصيّة واضحة في القصيدة التي كانت عيّنة الدراسة، فكان البحث عبارة عن عملية استكشاف لأهم الروابط النصية في زائية الشماخ.

• تطرُّق البحث إلى ذكر الدراسات السابقة التي تناولت هذه القصيدة، والتنبيه إلى إفادة هذا البحث من تلك الدراسات في إضاءة بعض الجوانب الأدبية أو السياقية، لبيان اختلاف القراءة بحسب المنهج التبع في قراءة النص الشعري تفسيره وتحليله.

• بين البحث مقدرة الشاعر على استعمال معجم دلالي خاص، استطاع بوساطته أن يخلق عالماً وبيئة خاصين بالقصيدة.

• تمَّ الحديث عن أهمية الدلالة السياقية، وقد جرى تقسيمها إلى سياق خارجي وسياق داخلي، بوصف السياقين ميدانين تنكشف فيهما دلالات سائر أدوات التماسك النصي.

• تناول البحث مظاهر موضوع الإحالة، وقد تمَّ الاستدلال عليها في أبيات القصيدة، مما كشف عن الثراء الدلالي الذي أحدثه استعمال أدوات الإحالة النصية القبلية والبعدية والمقامية، وذلك لبيان اهميتها كظاهرة لغوية لها بعد دلالي في الخطاب الأدبي.

• تطرق البحث إلى موضوع الاستبدال، وكشف عن وجوده في القصيدة، وقد تعددت صوره وأشكاله، من استبدال اسمي أو فعلي أو قولي لبيان مقدرة الشاعر في التلاعب باللغة من خلال المستبدل والمستبدل منه.

• وكان لموضوع الحذف نصيب من البحث، إذ تمَّ الوقوف على بعض مواضعه وبيان أهميتها في الكشف عن تماسك النص الذي خلقه الشاعر بهذه الظاهرة.

• أشار البحث إلى أهمية الربط الوصلي في عملية تماسك النص، فركَّز على قيمته في الربط بين الجمل والمفردات وغيرها من صور الترابط التي تسهم في وحدة النص العضوية والمعنوية وقد ظهرت واضحة عند الشاعر للربط بين المعاني والألفاظ.

المصادر

ابن منظور. (2003م). لسان العرب. بيروت لبنان: مؤسسة الأعلمي للمطبوعات.

أبو الرضا، س. (1988م). في البنية والدلالة رؤية لنظام العلاقات في البلاغة العربية. الإسكندرية - مصر: منشأة المعارف بالإسكندرية.

أبو غزالة، إ.، & حمد، ع. خ. (1998م). مدخل إلى علم لغة النص. القاهرة - مصر: دار الكاتب العربي القاهرة.

استيتية، س. ش. (2003م). منازل الرؤية، سمير استيتية، منهج تكاملي في قراءة النص. عمان -الأردن: دار وائل للنشر، عمان.

الأصفهاني، أ. (1992م). الأغاني. القاهرة: المؤسسة المصرية العامة للتأليف والنشر.

الأنصاريّ، ا. (1992م). مغني اللبيب عن كتب الأعاريب. (ح. و. الأفغاني، Trans.) دمشق - سوريا: دار الفكر دمشق.

الجرّاح، ع. ه. (2020م). الخطاب وأثره في بناء نحو النص تطبيق على المعلقات السبع. عمان - الأردن: جامعة اليرموك.

الجرجـانيّ، ع. (1988م). دلائـل الإعجـاز فـي علـم المعـاني. (ت. ا. رضـا، Trans.) بيروت -لبنان: دار المعرفة.
الحمـويّ، ا. (2003م). خزانـة الأدب. (د. و. ديـاب، Trans.) بيـروت - لبنـان: دار صادر بيروت.
الخطّابيّ،م. (2005م). لسـانيات النـص مـدخل إلـى انسـجام الخطـاب. بيـروت - لبنان: المركز الثقافي العربي، بيروت.
الزنّاد، ا. (1993م). نسيج النص، بحث في ما يكون به اللفظ نصاً. بيـروت - لبنان: المركز الثقافي العربي، بيروت، الدار االبيضاء.
السـهيليّ. (1993م). نتـائج الفكـر فـي النحـو. (ت.م. البنـا، Trans.) بيـروت - لبنان: دار الرياض للنشر واالتوزيع بيروت.
العقبـاوي، ا.م. (2016م). علـم لغـة الـنص مـدخل نظـري. القـاهرة - مصـر: دار الحرم.
الفقّيّ، ص. إ. (2000م). علم اللغة النصي بين النظرية والتطبيق. القاهرة - مصر: دار قباء للطباعة والنشر.
المسـدّيّ، ع. (1986م). اللسـانيات مـن خـلال النصـوص. تـونس: الـدار التونسـية للنشر.
بزاويـة،م. (2023م). فـن الإبـداع وإتقـان العمـل فـي الثقافـة الجاهليـة - دراسـة سوسيولسـانية لزائيـة الشـماخ بـن ضـرار. مجلـة الإبراهيمـي لـلآداب والعلـوم الإنسانية، 5 (1).
بعلبكيّ، ر.م. (1990م). معجم المصطلحات اللغوية. بيروت - لبنان: دار العلم للملايين بيروت.
بوجادي، خ. (2009م). في اللسانيات التداولية مع محاولة تأصيلية في الدرس العربي القديم. الجزائر: بيت الحكمة للنشر والتوزيع الجزائر.
جامعة القاضي عياض. (2022م). المنهج النصي وتطبيق حول المقامة الحلوانية للهمذاني. المغرب -مراكش: جامعة القاضي عياض، مراكش.

جبارة،م. ج. (2022م). دراسة بلاغية نقدية لزائية الشمَّاخ بن ضرار في وصف القوس. مجلة ديالى للبحوث الإنسانية، 92 (1)، 1.
حسّان، ت. (1993م). البيان في روائع القرآن دراسة لغوية أسلوبية للنص القرآني. القاهرة - مصر: عالم الكتب القاهرة.
حمّودة، ط. س. (1994م). ظاهرة الحذف في الدرس االلغوي. الاسكندرية - مصر: الدار الجامعية للطباعة والنشر والتوزيع.
دي بوجرانـد. (1998م). الـنص والخطـاب والإجـراء دي بوجرانـد. (ت. ت. حسان، Trans.) القاهرة - مصر: عالم الكتب.
ديوان الشمّاخ. (1996م). الشماخ بن ضرار. (ت. ص. الهادي، Trans.) دار المعارف بمصر.
ذهبية، ح. (2012م). لسانيات التلفظ وتداوليات الخطاب. المدينة الجديدة تيزي أوزو: الأمل للطباعة والنشر والتوزيع.
رمضان، ي.م. (2007م). القراءة في الخطاب الأصولي الاستراتيجية والإجراء. اربد - الأردن: عالم الكتب الحديث للنشر والتوزيع إربد.
روميّة، و. (1996م). شعرنا القديم والنقد الجديد. الكويت: عالم المعارف - سلسلة كتب ثقافية شهرية يصدرها المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب.
ستيتية، س. ش. (2008م). اللسانيات المجال الوظيفة المنهج. عمان - الأردن: عالم الكتب الحديث الأردن.
سهام، ن.، & فاطمة، ه. (2019م). صورة القوس في الشعر الجاهلي، زائية الشماخ أنموذجاً. مجلة جامعة ابن خلدون، تيارت، 36 (2).
صحراويّ،م. (2005م). التداولية عند العلماء العرب دراسة تداولية لظاهرة الأفعال الكلامية في التراث اللساني العربي. بيروت: دار الطليعة للطباعة والنشر.
عبد الرحمن، ط. (2012م). تجديد المنهج في تقويم التراث. الدار البيضاء - المغرب: المركز الثقافي العربي ،الدار البيضاء.

عيّاش،م. (2007م). العلاماتية وعلم النص. بيروت - لبنان: المركز الثقافي العربي بيروت.
عيد،م. (1989م). أصول النحو العربي في نظر النحاة ورأي ابن مضاء في ضوء علم اللغة الحديث. بيروت - لبنان: عالم الكتب بيروت.
فريال، ب.، & فهيمة، ب. (2020م). أدوات التماسك النصي وأبعادها الدلالية في ديوان صباح الخير ياعرب لصلاح الدين باوية. الجزائر: جامعة محمد الصديق بن يحيى، كلية اللغات والأدب العربي.
مدّاس، أ. (2009). لسانيات النص نحو منهج لتحليل الخطاب الشعري. أربد الأردن: عالم الكتب الحديث.
مونغونو، د. (2008م). المصطلحات المفاتيح لتحليل الخطاب. (م. يحياتن، Trans.) الجزائر - لبنان: الدر العربية للعلوم ناشرون - منشورات الاختلاف.
ناعوس، ب. (2013م). تحليل الخطاب في ضوء لسانيات النص، دراسة تطبيقية في سورة البقرة. وهران - الجزائر: جامعة وهران/ كلية الآداب واللغات والفنون، قسم اللغة العربية وآدابها.
نحلة،م. أ. (1987م). أصول النحو العربي. القاهرة - مصر: دار العلوم العربية للطباعة والنشر.
نزار،م. (2020م). الإحالة التكرارية ودورها في التماسك النصي بين القدامى والمحدثين. مجلة علوم إنسانية، 44 (1).
هانينه م، ف. (2004م). مدخل إلى علم لغة النص. (ت. س. بحيري، Trans.) القاهرة - مصر: مكتبة زهراء الشرق.
هنّوش، ع. (2016م). التأسيس اللغوي للبلاغة العربية (قراءة في الجذور). عمان - الأردن: دار كنوز المعرفة.